كنز ترعة قلاوون الألفي

رصدها محمد خليل الكسيح

بدأت الحكاية كلها بسؤال من طفل لم يتجاوز الثانية عشـر من عمـره.. لم يكن عبقريا أو حـتى متفوقـا في الدراســة ولكنــه فقــط الفضــول للمعرفــة فبينمــا كنت جالســا مــع الأطفــال بمســجد التقــوى بمدينــة سمنود غربية بعد صلاة العصـر يـوم الجمعـة كعـادتي كنشـاط للمسـجد فأجاني هذا الطفل بسؤاله

- أسـتاذ نـاجي.. هيـا الكيميـاء دي تنفعنا في أيه؟

ومع السؤال بدأت حكاية كـنز ترعـة قلاوون الألفي.

مدينة سمنود مدينة لها تـاريخ يقـال أنهــا كــانت عاصــمة فرعونيــة في الماضي وعُـرفت باسـم (سـبننوت) في عهد (نخت انبو الأول) في العام 380 قبــــل الميلاد وبالفعــــل تم اكتشـــاف الكثـــير من الآثـــار بهـــا والقائمة طويلة ومن أشـهرها الآثـار الباقية لمعبد (انـوريس شـو) خلـف مستشفي سـمنود العـام والـذي تم اكتشافه بالصدفة ولاتزال الحكايـات وربمــا المحــاولات لاكتشــاف تلــك الآثـار مسـتمرة، بالاضـافة إلى أنهـا كانت بلـد مصـطفى النحـاس رئيس الوزراء المصـري وحاليـا تم تحويـل منزله إلى جهاز للمدينة في الميدان بجوار مسجد الخواص المطــل على النيل وأيضـا توجـد مقبرتـه بـالقرب من بوابة الصعيدي للسكة الحديد.



الحكايات كثيرة وتجمع بين التاريخ والخيال ولكن من بينها حكاية السلطان قلاوون الألفي الذي فر من مصر بعد اغتيال فارس الدين أقطاي ويقال أنه القى بثروته من الذهب في ترعة سمنود في مكان ما قبل رحيله حتى يتمكن من الاسراع بالفرار الى حصن الكرك بالأردن وهكذا تروى الحكايات ولكن بلاشك هناك الكثير منها يعود لحقائق وتاريخ عاشته المدينة في وقت ما خاصة وأنها على مسافة بسيطة من مدينة المنصورة حيث وقعت معركة المنصورة الشهيرة

وتم أسر الملكة لويس في دار بن لقمان والذي لايزال موجودا حتى اليوم كمزار سياحي.



بطبيعة عملي كمعيد بجامعة المنصورة كلية العلوم قسم الكيمياء كنت أعود كل يوم عمل من موقف الميكروباص سواء من ناحية كوبري المنيا فأمر على بيت النحاس ومقبرته وكأني استرجع التاريخ والذكريات وإذا عدت من ناحية الموقف الجديد أمر على الترعة الحزينة كما أسميها وأتذكر أيام الطفولة ونحن نلهو على

ضـفافها ونسـتمتع مـع الهـواء النقي والأشـجار وطيـور أبـوقردان وأيضـا الأسماك وحتى السـباحة ولكن كـل شـــئ تغـــير وتحـــولت إلى مزبلـــة حقيقية تمر من خلالها المياة حزينـة وكأنهـا تنتحب على مـا فـات وضـاع من جمـال وأيـام لن يعيشـها أبنـائي من بعـــدي وســـتبقى فقـــط في ذكريـــأتي وأحلامي وأثنـــاء المـــرور يتصـــادف وجـــود بعض طيـــور أبـــو قـــردان والـــتي ربمـــا جـــاءت بـــدافع الأمل لعلها تجد الحـال قـد عـاد إلى سـابق عهـده على ضـفاف الترعـة ولكن دون جـــدوي حـــتى جمـــوع الأغنـــام الـــتي كـــانت تمـــر لتأكـــل الأعشـــاب وغيرهـــا لم تجـــد ســـوى القمامة والأوساخ.

أعيش هــذا الواقــع بشــكل يــومي وأسترجعه كمـا لـو كـان فيلمـا مملا وحزينا اشاهده كـل يـوم ولكن غـير السؤال كل شئ

- هيا الكيمياء دي تنفعنا في أيه؟

أحسســـت وكـــأن تيـــار كهربـــائي صـــعقني وســـألت نفســـي نفس السؤال فعلا لماذا ندرس ونتعلم إذا كان هذا العلم لاينفعنا كبشر ويخـدم مجتعمنا وبيئتنا وكنت أسمي الثــورة الصناعية ثورة الحمير لأنها كانت بلا أخلاق وضـــمير أهتمت بالماكينـــة والســلاح وأهملت الانســان والبيئــة والتنوع واليـوم نجـني الثمـار تلـوث واحتباس حراري وأمراض ودمـار بلا مبرر فقط من أجل البيزنس والقوة ومع السؤال بدأ كل شئ وأرتسمت

الفكـرة في رأسـي بشـكل مـدهش وكأنها كانت تختبئ منذ زمن وفقـط تنتظـر للصـعود إلى السـطح ليراهـا الجميع.

توجهت إلى مركز الشرطة بـالقرب من المستشفي التي احببت أن أمر بجوارها كمـا لـو كنت أبحث بـدوري عن الكنـوز المدفونـة أسـفلها ولكن لم يكن الفراعنـــة هم هـــدفي بـــل المماليـك وسـألت بثقـة العسـكري على الباب

- أين مكتب رشوان باشا

مع الثقة والزي الجيـد رد بـاحترام بـــل وقـــادني إلى مكتب رشـــوان باشا والذي كنت أطلق عليـه لقب مـأمور الشـرطة أو الشـريف كمـا في الأفلام الهوليوديـــة والرجـــل

يســتحق اللقب ببنيتــه الضــخمة وأسلوبه المحترم في التعامل مــع الجميع ولكني كنت أحمل لـه خـبر من نــوع خــاص عن كــنز قلاوون الألفي الذي تركه في قـاع الترعـة بسمنود ونهض رشـوان من مكتبـه بعد أن استمع الى محاضــرتي عن كنز قلاوون وأجهزة كشف الـذهب التي بحوزتي ورغبتي في الكشـف عنه تحت حماية الشـرطة بطبيعـة الحـال وبينمـا يتجـول وكأنـه يبحث عن شئ ما بالمكتب تحدث فجأة

- النـــاس في ســـمنود تبحث عن الآثار الفرعونيـة بطريـق قانونيـة وغـــير قانونيـــة وأنت تبحث عن كنــوز المماليــك.. مــا المطلــوب مني؟

- سـيارة للحمايــة لأنــني سـيكون معي معـــدات ثمينـــة لكشـــف المعـادن وأيضـا مهنـدس سـيد الطويـل للتصـوير بالأشـعة تحت الحمـــراء في حالـــة التأكـــد من وجود معـادن أو الـذهب.. وأيضـا أجهزة ثمينة تحتاج الحماية
- متي ستبدأ
- كل شئ جاهز غـدا في العاشـرة صباحا سيكون ممتاز
- سـأكون معـك بنفسـي وأيضـا مسؤول من جهاز المدينـة.. ولـو كلامـك مضـبوط دكتـور نـاجي هأجيب لك كل وزارة الآثـار على الفـــور.. أنت تتحـــدث عن كـــنز ذهب لسلطان مملوكي



في صباح اليوم التالي وفي تمام العاشرة صباحا بدأ كل شئ وبدأت في تشغيل أجهزة الاستشعار للكشف من مسافة 5 أمتار وكانت كافية مع الترعة وسرنا على طول الترعة حتى وصلنا لمنطقة متعرجة وهنا دقت أجهزة الاستشعار بقوة فأطفتها وأعدت التشغيل فدقت بقوة مرة أخرى والتفت الى رشوان باشا وقلت

- لو في حاجة يبقى هنا

- الان يبــدأ شــغل مهنــدس ســيد للتصــوير ولــو في عنــدك حاجــة مطبوعـــة أو مصـــورة يـــاريت عشان تكون دليل لوزارة الآثار

بالفعل بدأ مهندس سيد في إخراج أدواتـه وبـدأ الجمهـور في التجمـع عندما رأوا طائرة هليكوبتر صغيرة تطير للتصوير فوق الترعة.

وبـــدأت الاشـــاعات على الفـــور ولكنها تحولت لحقيقة عندما انتهى مهنـدس سـيد من التصـوير ورأينـا جميعـا الصـور وكـان هنـاك شـئ ضخم يلمـع بوضـوح وبـرقت أعين الجميـع فقـد أصـبح واضـحا أننـا جميعا على الطريق لكشف علمي وثمين أيضـــا فنحن الان بالأدلـــة

العلمية نتحدث عن كنز السلطان قلاوون الألفي.

أكد لي رشوان باشا وعضو مجلس المدينة بأهمية الاتصال الفوري بوزارة الآثار وإرسال الصور والتقرير لهم وأيضا حماية هذا المكان بسيارة شرطة على الأقل حتى الغد وعدت إلى منزلي بعد أن دعوت مهندس سيد للغذاء معي فقد كان من سكان المنصورة ولكنه أخبرني بأنه سيعود في الغد لمتابعة الأحداث بعد أن يعيد الأجهزة إلى المركز العلمي بالجامعة.

وفي المنزل مرت برأسي الكثير من الأحداث وكأن تاريخ المدينة يمر أمامي في مشهد مصور وأنا

اري قلاوون الالفي يخـــــــرج من
مصـــر مـــع الظـــاهر بيـــبرس بعـــد
اغتيـــال فـــارس الـــدين أقطـــاي ثم
القـــاء الكـــنز في الترعـــة ثم أري
الفراعنـة يتجولـون حـولي وأخـيرا
نمت ولكن جـــاءت ســـيارة ملاكى
في الصباح أرسـلها رشـوان باشـا
لتنقلني فأخبرت السـائق بـأني لـو
مشـــيت هيكـــون أســـرع نظـــرا
للشـــوارع الضـــيقة ولكنـــه أصـــر
وصحبني حتى موقع الترعة وكانت
المفأجـاة عنـدما وجـدت عشـرات
السـيارات المختلفـة منهـا النقـل
الكبـير وجرافـات لتطهـير الترعـة
وأيضا سـيارات فـاخرة ربمـا تعـود
للضـــيوف المهتمين بكـــنز قلاوون
ولكن الأهم كـــــانت المعـــــدات
والأجهزة التي تقوم بعملية المسح

والاستشعار ويبدو أن الخبير الــذي أحضــروه كــان متحمســا للنتــائج ورحب بي وهو يقول

- دكتــور نــاجي لــو في كــنز يبقى هنا.. وأنت هتكــون مشــهور جــدا خلال ساعات

وتعجبت عنـــــــــدما رأيت بعض الصــحفيين والات التصــوير أيضــا وأندهشت أن يحدث هذا في مصر وبهـــذه الســـرعة ولكن يبـــدو أن الذهب له سحر خاص، الجميع كان متحمس وحــتى الجمــاهير الــتي تجمعت ولم تفهم شئ أو فســرت الأمــر كمــا يحلــو لهــا ولكن في النهاية كان هناك شئ مهم يحدث.

الوحيد الذي كان صامتا وينظــر لي في تســاؤل مهنــدس ســيد والــذي

حضر ولكنه ظـل جالسـا من بعيـد يترقب في هدوء.

تم تطهـير الترعـة بالكامـل ونقـل كـل الأوسـاخ والزبالـة إلى مصـنع للمعالجة وبالفعل بدأت مياة النهر تعـود من جديـد وتسـتعيد الترعـة عافيتهـا ومظهرهـا القـديم وهنـا وجـدت غطـاس يقـوم بـالقفز الى الترعة وبعد دقائق ظهر وهو يشير بأشـارات معينـة فـأنزل لـه فريـق العمـل كـابلات فأخـذها وعـاد إلى الأسـفل من جديـد وبعـد دقـائق خـرج وهـو يشـير بعلامـة الايجـاب للفريـق وهنـا بـدأت عمليـة رفـع الكـنز أمـام الجميـع وتسـمرت الأعين على الرافعـة والكـابلات وأخيرا ظهر صـندوق معـدني كبـير

يحتــوى على الكثــير من العملات المعدنية وصرخ الناس

- الذهب.. الذهب

وتعـــالت الصـــيحات فـــأخيرا تم اكتشاف كنز السلطان قلاوون.

كـــان أول من فحص الصــــندوق بحمــاس خبــير وزارة الاثــار ولكن بعــد 15 دقيقــة بــدأ عليــه الغضــب وبدأ ينظر باستياء للجميـع وتـابعت الحوار من بعيد والـذي أحتـد وهنـا صاح الخبير بصوت عالي

- دا مش ذهب خالص

وهنا تعـالت الصـياح من الجمـاهير المحتشدة وصرخ أحدهم

- بيضــحكوا علينــا عشــان يخــذوا الذهب.. الكنز دا بتاعنا

وبالفعل زادت حدة الحشود حتى أطلقت الشرطة الأعيرة النارية في الهواء حتى هدأ المناخ وهنا ألتقط الخبير ميكرفون وصاح

- دا مش ذهب.. معدن وبيلمع بس مش ذهب وليس له قيمة

ثم ألقى بعضا منه في الترعة أمام الجميع ودفع الصندوق بقدميه على الأرض لتتناثر القطع المعدنية والتي ظن الجميع انها الدنانير الذهبية المملوكة، وأسرع الناس يلتقطونها رغم كل ما حدث وأيضا بعض المشاجرات ولكن في النهاية انصرف الجميع وكنت واقفا على ضفة الترعة ولكن لم يتوجه أحد للحديث معي وبقيت في مكاني ساعة كاملة حتى اختفت

الحشود والسيارات والجرافات وسيارات النقل والرافعات وهنا تقدم مني مهندس سيد بهدوء وقال

- بعد ما رجعت بحثت عن قلاوون الألفي.. مات سنة 1290 م يعنى بعد اغتيال فارس الدين اقطاي ب36 سنة فلو كان في كنز فعلا كان رجع وخذه..
- صحيح
- تمام.. احكي لي القصة كاملة الان فقد خدعتني أنا أيضا وكلفتني يوم عمل وتصوير للترعة.
- بدأ كل شئ من سنة تقريبا بالاعلام والكلام عن كنز السلطان قلاوون في المسجد.. القهوة.. الميكروباص.. على

مواقــع التواصــل الاجتمــاعي.. أصـبحت قصـة يحكيهـا الجميـع.. الاعلام مهم.. ثم جاء دور الـدليل العملي مـع اجهـزة الاستشــعار والتصـوير ورشـوان باشـا ولكن الأمـور تحـركت بسـرعة الـبرق بصراحة توقعت شهر على الأقل ولكن كل شئ تم في 24 سـاعة فقط.

- والكنز الذي وجدوه.
- كتاب كيمياء قديم لجابر بن حيان عن علم الحيـل ووصـفة رخيصـة الثمن لصنع معدن يشـبه الـذهب فقط يلمع ولكنه لا يساوى شئ.. لم أصـدق عنـدما قرأتـه (قشـر بيض ونشــادر وشــعر وحاجــة اســمها الزنجفــر) وعملت منــه المعــدن الكــاذب وأحضــرت

صندوق حديد عالجته ليبدو قديما وأعـددت كميـة كبـيرة ثم ألقيتـه في قاع الترعة.

- ومـا الهـدف من كـل هـذا؟ مـاذا أستفدت؟
- ماذا اسـتفدت أنظـر حولـك؟ أنـا الان اســتمتع بــالكنز الحقيقي.. الترعة نظيفة وأسراب ابوقردان بدأت تعود وقريبا السمك أيضـا.. لقد انتصرت للجمال والبيئة
- صحيح.. أشوفك في الجامعة



أنصرف مهندس سيد ولكني بقيت لفترة طويلة على ضـفاف الترعـة ويوم الجمعـة أصـطحبت الأطفـال

بالمســجد للتجــول على ضــفافها والاســـتمتاع بـــالمنظر الجميـــل وأســـراب الطيـــور الـــتي عـــادت والتفت إلى الطفـل الـذي سـألني بالمسجد

- هيا الكيمياء دي تنفعنا في أيه؟

فقلت له شفت الكيمياء بتنفـع في أيـه.. حافظنـا على البيئـة وجمـال الترعة والمياة النظيفة

فرد ضاحكا

- الكيمياء فعلا جميلة

تمت